شرح

صك الانتداب

لسوريا ولبنان

— ٤ —

بقلم المحامي الفاضل السيد مصباح التوتونجي بطرابلس الشام

(كتبت خصيصاً للحقوق)

المادة الخامسة : يجب الا تطبق الامتيازات الاجنبية القديمة ومن جملتها المحاكم القنصلية والحماية » كما في عهد السلطنة العثمانية بمقتضى احكام قانون الامتيازات الاجنبية والعادات المرعية » . على ان للمحاكم القنصلية الاجنبية ان تستمر في عملها الى ان يشرع في تنفيذ النظام القضائي الجديد الذي نص عليه في المادة السادسة . وسيعود لرعايا الدول ما كانت تتمتع به من الامتيازات حتى اول آب سنة ١٩١٤ بعد انتهاء مدة الانتداب فوراً بدون تغيير او تحوير الا ما تكون وافقت عليه الدول صاحبة الشأن .

ويجدر بنا هنا قبل الشروع في شرح هذه المادة ان نأتي على تاريخ الامتيازات الاجنبية في السلطنة العثمانية ونقول :

ارتقى فرنسوا الاول عرش فرنسا فكانت معركة ماريبان الكبرى واتحة حكمه تلك المعركة التي جعلته سيداً على ميلان وبارم وبليزانس الا انه فجوان تكون

المدة التي تذوق فيها ثمرة فوزه بطرده قصيرة اذ التقى شارل الخامس ملك اسبانيا في سنة ١٥١٩ امبراطوراً على المانيا فاخذ فرنسوا الاول منذ ذلك الحين يتنازعان العداوة والعداء الذين كانا سبباً لعدة حروب طاحنة .

بدأت الحرب بينهما في سنة ١٥٢١ فكانت فرنسا في السنة الثانية للحرب ميلان للاول فرنسوا الاول استردادها فاستردها في سنة ١٥٢٤ وطارد جيش الامبراطوريين الذين كانوا « بروبون » وتابع زحفه الى (بافي) فحاصرها ولكنه خسر معركتها في ٢٤ شباط سنة ١٥٢٥ ووقع في الاسر وارسل الى مدريد ولم يحصل على حريته الا بثمن باهظ حيث وقع معاهدة (مدريد) متنازلاً فيها عن كل حق له في ايطاليا وتخلى عن دوقية بورجونيا .

حدث ذلك والامبراطورية العثمانية في اوج عظمتها وسطوتها ولم يلق السلطان سليم ربه في سنة ١٥٢٠ الا بعد ان اخضع لدولته ارمينيا وبلاد الفرس وهزم امبراطورية السودانيين في مصر واضعف من سيطرة المماليك وخلف هذا الملك العظيم ابنه سليمان الثاني الذي يعد باكورة اعماله الاستيلاء على رودس وبها اصبح بذلك السيد البري لا يناهض في الساحل الشرقي البحر الابيض اتجهت انظاره الى وادي الدانوب فقهر ملك المجر لويس الثاني في معركة (موهكز) واستولى على بلغراد وبودا وخاضر فيا .

وقد دعى هذا الموقف السياسي الخرجي الى تقارب الملكين فرنسوا الاول وسليمان العثماني ونشأت بينهما صداقة وولاء .

وكان البابا في المفاوضات فرنسوا الاول فقد اوفد اليه وفداً قدر ان تمثل رجاله في بهجة واشعه آخر برئاسة رجل محرمك يدعى جان فرانجيباني اصحبه برسالة منها ما يأتي :

« انما نلتمس من امبراطور العالم الكبير السلطان العثماني ان يتسع لنا

بمطاردة هذا المتكبر ابي (شارلكان) وانا منذ اليوم حسام الامبراطور الكبير سيد اهل العصر ابي السلطان العثماني »

(الامضاء — فرانسوا)

قرأ السلطان سليمان الثاني (امبراطور العالم الكبير) هذه الرسالة فتحركت فيه عاطفة الشفقة وعزم على محاربة شارلكان .

ولما رأى فرنسوا هذا الاقبال فرانجيباني من النجاح الباهر في مهمته السرية شبه الرسمية وزيارة صدر السلطان طمع في صداقة ذلك السلطان العظيم واخذ يواصل مساعيه في هذا السبيل فوفد سنة ١٥٣٤ الى القسطنطينية بعثة ثالثة رسمية واختار له رجلاً قديراً يرتسها هو المسيو لافورسي فنجح هذا ايضاً وانتهت مهمة بعثته في شباط سنة ١٥٣٥ بمعاهدة ودية عقدت بين الفريقين وقعها لافورسي باسم سيده ملك فرنسا والصدر الاعظم ابراهيم باشا باسم السلطان .

وكانت هذه المعاهدة الاولى التي عقدت بين الامبراطورية العثمانية وبين دولة اجنبية وهي في اول امتياز منح للاجانب وحجر الزاوية في بناء الامتيازات الاجنبية .

وقد تبين لنا عما مر انها لم تحدث بالقوة والاكراه حتى ينتزعها الاجانب حجة على حق يدعونه او سلطة يمارسونها وانما كانت منحة من السلطان وهو من علمت حينئذ منعها الى فرنسوا كرماً واحساناً .

وقد صدرت موافقة سلطان مصر لسان نوبس بتأسيس قنصلية فرنسوية في الاسكندرية على اثر انكسار الفرنسيس في معركة المنصورة كما حدث بعد انكسار جيش الفرنسيس في (ياسي) واخذ فرنسوا اسيراً الى مزيد من تصديق السلطان سليمان على ما منحه سلاطين مصر للدولة الفرنسوية من الامتيازات .

وهكذا ظلت هذه المعاهدات تزداد سنة بعد اخرى وتعطى بكرم حاتمي حتى

شبت نيران الحرب العامة واصطلت تركيا بلظاها فسحت جميع تلك المعاهدات والقيت الامتيازات .

شرح : الفقرة الأولى . « الامتيازات القديمة والمساواة المدنية » .

قد اطلت الامتيازات السياسية والاقتصادية عند دخول تركيا في الحرب الكبرى كما مر بك . فاصبح الاجانب سواسية في الخضوع للقوانين المحلية الاجنبي منهم والوطني ، فاصبح للحكومة العلية الا ان تشمر عن ساعد الجد لتجمع من الاحباب ما تشتهيه نفوسهم من الصرائب ولا ريب انها تجد بذلك مرتعاً خصباً في ميزانيتها .

وليس للحكومة المتحدة عليها من سلطان في هذا الشأن مطلقاً والاجانب في ذلك متساوون لا فرق بين الفرنساوي والانكليزي بل لا يجوز لرعايا الدولة المتحدة على غيرهم ذلك لان خضوع الاجانب لقانون الدولة العلية امر لا مندوحة عنه لحفظ الأمن الدولي العام وعلى الاجنبي الذي لا يريد الخضوع لقوانين الدولة التي يستوطن بلادها ان يغادر تلك البلاد لان الخضوع للقوانين المحلية واجب على الوطني والاجنبي سواء .

على ان هذا النص بما انه معطوف الى المادة السادسة فقد ارجأنا البحث فيه الى المادة المذكورة منعاً للتكرار .

الفقرة الثانية : (عودة الامتيازات عند انتهاء الانتداب) .

لا ريب ان قاعدة الانتداب التي اوجدتها جمعية الامم قائمة على تهيئة الشعوب الضعيفة للاستقلال المطلوب وارشادها الى ما فيه نفعها حتى تبلغ اشدها وتحكم نفسها بنفسها .

هذه هي المهمة المقدسة التي انتدبت لأجلها الدول المتحدة فهل يجوز لدولة منها بعد ان تسعى سعياً لانشاء احدى الدول الضعيفة خلقاً جديداً وتضع فيها من روحها فتظهر على مرسح الحياة امة ذات استقلال ان تعود فتكبلها بقيود الامتيازات

الاجنبية التي قضت عليها الحرب وهل تكون اذا فعلت ذلك قامت بواجب الامانة التي عهدت اليها وهل تستطيع ان تبرر نفسها من هذا العمل اذا وجدت من يناقشها الحساب لاجله وهل لا يبدو لرجمية الامم في صك الانتداب برجوع الامتيازات على ما كانت عليه قبل الحرب العالمية بعد الغائها موقتاً مدة الانتداب بعيداً عن المنطق؟

اجل انه لا معنى لالغاء الامتيازات في الوقت الحاضر تحت الانتداب وعودتها عند ما تكون قد ملكنا قيادنا انفسنا وبلغنا رشدنا .. وهل تظن جمعية الامم بعدئذ اننا نقبل بقاء تلك الامتيازات وهل لا ترى ان دون بقائها خرط القتاد ؟

الا تعلم جمعية الامم ان لكل امة حقوقاً طبيعية يجب ان تحتفظ بها ومنها حقها في الحياة حياة لا تفكر صفوها يد اجنبية ؟ اذاً لماذا تنكر علينا هذه الحقوق وهي موئل الحرية والعدل كما يقولون وترغب في ان تجعل للاجانب حقوقاً في بلادنا تأبى ان تكون لهم كل الاباء والعدل والانصاف بظاهرانا على ذلك ، ونحن لا نحسب جمعية الامم الا انها ارادت بذلك ان تقيم لنا ذراعة تضطرنا الى البقاء في حظيرة الانتداب ولا تجسر على الخروج منها الى الابد .

منحت تركيا الاجانب تلك الامتيازات كما مر في وقت كانت فيه اعظم الدول قوة وشأناً وكانت تعد ذلك احساناً منها وكرماً ولم يدر في خلد احد ساستها ان سيأتي يوم تنقلب فيه على امرها فيصبح ما منحته احساناً وجادت به تفضلاً وكرماً حقاً تطالب به جبراً .

وقد منحت حق تأليف المحاكم القنصلية حين كانت لا تعد تلك المنحة مخلة بحق قضائها فاذا هي بعد ذلك ضربة من اشد الضربات ضرراً على حقوقها واذا هي لا تملك نقض ذلك الامر واصبح فوق طاقتها

كانت الدول قديماً لا تجرؤ على تسيير سفنها في مياه تركيا ولكن تنازل هذه الدولة المغلوبة بنفسها وقوتها جعلها تمخر آمنة في بحارها وترسو في موانيها .

ولقد تقاص ظل تركيا عن هذه البلاد وتركتنا مهيض الجناح لا تقوى على رد عاديات البلاء ولو انها اثارت سيلنا بالعز والغرور لكنا الآن في منجاة عن التسكع في مائه الظلمات . ولكن هكذا ارادت مشيئة الجهال وكانه لم يكفنا ما لحق بنا من هذا الوبال حتى جاءتنا جمعية الامم رسول السلام بفزعة عودة (الامتيازات بعد الانتداب) .

اللهم ان ذلك لا يرضي به العقل ولا يقره الانصاف وحقوق الدول من وراء ذلك تقول بعدم وراثة العهود السياسية والمعاهدات الدولية لذلك فلا يجب اذا ما انفصلت امة عن دولة من الدول ان ترثها بعهودها ومعاهداتها .

وهذا امر ثابت لا تختلف فيه دولتان (ولا تتناطح عنزان) وانا لنعجب شد العجب من هذه الجمعية وتوطئها هذا تجنها في ذا يا ترى ؟

اما ما جاء من قول هذه المادة فيتوقف على موافقة الدول صاحبة الشأن فيجوز ان تحدث موافقة كهذه من احدها من جهات .

وعلى كل حال الا يقع الا اتفاق في هذا الصدد بالاشتراك مع الدولة المنتدبة التي هي صاحبة الشأن في ذلك ، اجل انها تكون مرجع ذلك الاتفاق وكل اتفاق خارجي .

ولكن لو فرضنا ان الدائرة الوطنية تمكنت من اقناع احدى الدول بالتنازل عن امتيازاتها فهل يحق لفرنسا اذا شاءت ان ترفض ذلك التنازل ؟

كلا ليس فرنسا ولا للدولة منتدبة اخرى ان ترفض ذلك ولا سيما المادة لم تنص على قبولها ذلك التنازل ، ولكن اذا وقع اتفاق بين فرنسا ودولة اخرى ومنحت فرنسا تلك الدولة في مقابل التنازل عن امتيازاتها حق من الحقوق التي تخل بحقوق اخرى ، فهل يكون مآل هذا الا اتفاق صحيحاً ؟

كلا هذا وقد الغت تركيا اسماء الحرب الامتيازات كلها وقبلت بذلك كل من

ولي المانيا والنمسا والمجر ، فليس لاحدى الدول المذكورة والحالة هذه شيء من الامتيازات القديمة كما انه ليس لاحدى الدول التي قامت على انقاض هذه الدول امتياز او غيره في هذه البلاد .

* * *

للمتنبي

لقد رحمت وان لامي فوائل لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا ابدأ بعد الكتاب به ... فانما نحن للاسياف كالخدم
من انتضى سوى الهندي حاجته ... اجاب كل سؤال عن هل ولما
توهم القوم ان العز ارربا ... وفي التغرب ما يدنو الى التهم
ولم تزل قلة الانصاف قاطعة ... بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم
هون على بصرا ضاق منظره ... فانما يقظات العين كالحلم
ولا تشك الى خلق فتشمته ... شكوى الجريح الى الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تسترهم ... ولا يغرك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه في عدة ... واعوز الصدق في الاخبار والقسم